المجلد: 17 العدد: 02/ مارس 2022
ص: 253 - 265
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

الخطاب الصوفي لدى رابعة العدوية: من منظور سيميائية الأهواء

The Sufi discourse of Rabaa Adawiya from the point of view of the semiotics passions

نسمة عيساوي *[1]، عائشة رماش [2]
[1] جامعة عنابة، nessmaaissaoui@gmail.com
[2] جامعة عنابة. remacheaicha@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2021/02/26 تاريخ القبول:2021/03/01 تاريخ النشر: 2022/03/28

ملخص: تسعى هذه الدراسة إلى تمثل الآليات والأدوات الإجرائية لسيميائية الأهواء في قدرتها على الكشف عن الذّات وعواطفها في الخطاب الصوفي من خلال تتبع مسار الذّات الهويّة والكشف عن المعنى وآليات اشتغاله وفق خطاطة استهوائية تعمل الذّات على تحقيقها وبلوغها. وبالتالي نتمكن من رسم معالم تشكل مسار الدلالة في الخطاب الصوفي والذي ارتأينا أن يكون خطابا يصب في خانة التجربة الصوفية لشهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية ومدى نجاعة منهجية سيمياء الأهواء في تقصي الأهواء والعواطف في مثل هذا المأخذ من خطابات.

الكلمات المفتاحية: الذّات، الخطاب الصوفي، الأهواء، السيميائية، العاطفة..

Abstract: This study seeks to represent the mechanisms and procedural tools of the semiotics of passions, in their capacity to reveal the self and its emotions, in the Sufi discourse by tracing the path of the subject's identity and by revealing the meaning and mechanisms of its functioning, according to a passion plan, that the subject seeks to achieve and achieve. Thus, we can trace the landmarks that form the path of meaning in the Sufi discourse, which we have decided to be a discourse in the field of the mystical experience of the martyr of divine love Rabia al-Adawiya and the effectiveness of the methodology of the semiotics of passions in seeking passions and emotions in such discourses.
Keywords: the self, mystical discourse, passions, semiotics, emotion.

* المؤلف المرسل

1.مقدمة:

تنضوي هذه الدراسة تحت إطار اشتغال الهوى وكيفية تمظهره في النّص الصوفي من خلال قراءة لبعض الأبيات الشعرية الصوفية، التي حاولنا من خلالها دراسة كيفية اشتغال هوى الحب باعتباره أساس انبثاق المعنى معتمدة على الخطاطة الاستهوائية التّي وضعها **غريماس وفونتاني**.

سنحاول في هذا المقال دراسة عاطفة " الحب " وكيفية اشتغالها ضمن النص الصوفي وفق منهجية سيمياء الأهواء وفق ما وردت لدى **غريماس وفونتاني** من مسالك تنظيرية، حيث ركزت سيمياء الأهواء على البعد الانفعالي للذات الذي " يشكل بعدا جديدا داخل المسار التوليدي يطلق عليه المؤلفان: البعد الانفعالي فالإنسان لا يفعل فقط، إنه بالإضافة إلى ذلك يضمن الفعل شحنة انفعالية، تحدد درجة الكثافة التّي يتحقق من خلالها هذا الفعل"[1] ، كما أعادت الاعتبار لحالات النفس وبهذا تم إضافة البعد الانفعالي للبعدين التداولي والمعرفي أو بما يصطلح عليه البعد السيميائي للوجود المتجانس لتصبح حالة الأشياء مكملة لحالة النفس؛ لأن العالم الخارجي بكل محتوياته يؤثر في الذات النفسية مما ينجم عنها عدة سلوكيات وانفعالات يمكن أن نلاحظها ونقيس شدّتها في نحو نظرات الغيور وتشنج الغضوب ،...وعليه، كان النشاط الإنساني في مجمله هو وصف المعنى وآليات اشتغاله داخل عالم مدرك ودال في كليته؛ فسيميائية الأهواء تتخذ من العواطف والأحاسيس مادة لها بحيث تركز اهتمامها على النّص الأدبي الغني والخصب بمثل هذه المشاعر والعواطف، مما يجعل النّص حافلا بالقيم الوجدانية التّي تكون السبيل إلى دفع الذات الاستهوائية للقيام بالفعل عن طريق الاتصال أو الانفصال عن موضوع قيمتها من خلال قيامها بعمليات التحويل التّي تظهر في شكل علامات أو مؤشرات دالة وهي نتيجة التفاعل بين القيم العاطفية للذوات الاستهوائية لتسفر في الأخير عن كيفية اشتغالها وإنتاجها للخطابات المضمرة لتكشف عن الجانب الدلالي والجمالي والمعنى المشكل لها.

2 . نظرة عامة عن الحب الإلهي عند المتصوفة:

يرد الحب الإلهي عند المتصوفة بوصفه الحب المطلق الذي تجتمع فيه كل الأحاسيس الإنسانية إنه حب يعجز عن وصفه، إنه يتصدّر مسلك حب الله جل جلاله، فهو سياق تبادلي بين الله والإنسان وبين الإنسان والله، فالحب الإلهي يصح أن يطلق على مأخذين " أحدهما حب الله سبحانه للإنسان وثانيهما حب الإنسان لله: فأما حب الله سبحانه للإنسان فهو إرادته لإنعام مخصوص عليه مثل القربة والأحوال العلية، أو هو مدحه له وثناؤه عليه بالجميل، أو هو صفة فعل الله عز وجل وإحساس مخصوص يلقى الله العبد به وحاله مخصوصة يرقيه إليها، وأما حب الإنسان لله سبحانه فهو حالة يجدها العبد من قلبه تلطف عن العبارة، وقد تغلب عليه هذه الحالة فتحمله على تعظيم محبوبه وتقديسه وإيثاره له ورضاه عنه...وشوقه إليه، وأنسه به وطول التغني بحبه، ودوام الذكر بقلبه"[2] وهذا ما يرسخ لمحبة تلك الفاعلية المطلقة المستغرقة التي لا تزول، محبة نقية صافية إنه

حب يخرج عن هوى الذات المحبة إلى مطلق طاعته والانصياع لأمره، ليعلن المحب وحدانيته للمحب الذي يمنحه أعلى درجات العبودية وهذا ما نلمحه لدى شهيدة العشق الإلهي **رابعة العدوية**، التّي تعد من الجيل الأول من رعيل المتصوفين المسلمين، وأول شهيدة العشق الإلهي، وسميت كذلك لتماهيها في عشقها لذات الله ، لذلك ظلت تفني أهوائها في ذكر الله والتقرب منه.

لقد كانت بداية الحب الإلهي من الله تعالى لعباده ولكن هل يمكن أن تكون هذه العلاقة متبادلة أي أن يحب الإنسان الله كما يحب الله الإنسان؟ لذلك نذهب إلى أن حب الله لعباده ليس كحب العبد لربه فالله هو خالق هذا الكون بما فيه من كائنات بيده القوة وله الملكوت، أما الإنسان فله جانب من الضعف ولذلك كان حبه فيه نوع من الطاعة لله لأنه هو الأقوى وهو المعطي والواهب لهذا الحب فحتما سيكون رد هذا الحب من طرف العبد حب فيه طاعة واستجابة لكل ما وهبه الله لعباده، ولذلك كان على العبد إتباع أوامر الله سبحانه والابتعاد عن نواهيه، ولذلك أفرد الصوفيون مساحات واسعة من كتاباتهم لموضوع الحب الإلهي بل موضوعهم الأساسي حب الله والزهد، لأجل هذا الحب باعتباره من أجلّ السلوكيات التّي يتوجب على المؤمن إتباعها إن أراد الفوز بحب الله وقربه .

كانت **رابعة العدوية** أول من قال بحب الله بلا علة تذكر، وهي من أقدم المتصوفين في التاريخ الصوفي الإسلامي، فقد وصلت في بدايات حركة التصوف إلى مرحلة متقدمة في حب الله وعشقها له ما جعلها تحمل لقب شهيدة العشق الإلهي بعد أن وهبت حياتها كلها في حب الله والشوق للقائه " فالحب اذن حركة تمدد تشمل مراتب الوجود بوصفها مظاهر لحقائق الألوهية ومن ثم تتناسل مظاهر عديدة لتلك العاطفة...بوصفها تجليات للحب الإلهي"[3].

3.تجليات هوى الحب في القصيدة

احتلت موضوعة الحب اهتماما كبيرا من طرف الشعراء والأدباء، حيث ألفوا كتبا مستفيضة تناولته بالشرح والتحليل والدراسة ولا لشيء إلا باعتبار أنّ " الحب " من أرقى السلوكات الإنسانية وأعلاها درجة، ومن بين الخطابات التّي نجدها حافلة بمثل هذه المواضيع، الخطاب الصوفي الذي تظهر فيه الأهواء بارزة فهو موطنها ومنبتها وهو المادة الأولية لكل خطاب صوفي، فقد لقي هوى الحب مكانة بارزة ودرجة رفيعة وتقديسا إلاهيا لدى المتصوفة واتخذوه رحلة روحية وترحالا وسفرا متواصلا لدى خيام القرب من الله " فلا أحد ينكر أنّ التيّار الصوفي يشكل مكونا أساسيا من مكونات الفكر العربي المعاصر، ومن ثم فهو يفعل فعله في أنماط التفكير والسلوك، بصرف النظر عن الموقف منه قبولا وردا، اطمئنانا وشكا"[4]، وعليه نجد أنّ الشاعر الصوفي العاشق الولهان يسبح في عالم مطلق، عالم نقي طاهر، عالم تغيب فيه كل الشوائب فيحمل كل أمتعته و يتوجه إلى تجسيد علاقته بمعشوقه الخالق الذي لا يفنى، فيذهب في وصفه أحسن الأوصاف على الإطلاق ووصف معاناته

ومناجاته فيغدوا هذا الحب حبا مطلقا حب لا تكسره الأحوال فيحسن صنع النّص الذي حتما سيكون مشبعا بكل العواطف والمشاعر الجياشة التّي تلهب صدر المحب صوب محبوبه ، فيكون النّص حافلا بكل المدلولات والمسوغات التّي من خلالها نستطيع استنطاق النّص وإفراغه من كل حمولاته الدلالية والجمالية التّي تظهر في الحالات والتحولات التّي تطرأ على القيم بفعل الذات ، حيث تتحول الذات من حالة اللاستقرار أو الانفصال إلى حالة الاستقرار أو الاتصال وتمر بذلك بعدة محطات رئيسية سنفصل فيها القول لاحقا.

" تظهر اللغة الصوفية والخطاب الصوفي أولا من خلال المعجم الصوفي الذي هيمن هيمنة مطلقة، إذ نجد مصطلحات من قبيل"[5] «الحب، الهوى، الذّكر، العشق، الوجد، اليقين، لتجسد الحب الإلهي وتكشف عن تفاصيله من خلال قول الشاعرة **رابعة العدوية** في قصيدتها الحب الإلهي:

عرفتُ الهوى مذ عرفتُ هواك وأغلقتُ قلبي عمن عَداك

وقمت أناديك يا من ترى خفايا القُلوب ولسنا نـــــراك

أحبك حبين: حبّ الهوى وحبّا لأنّك أهـــــلٌ لذاكـــــــا

فأما الذي هو حب الهَوى فشُغلي بذكرك عمن سِـــــواك

وأما الذي أنت أهل له فكشفك للحجب حتّى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاكا لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

تحمل هذه الأبيات دلالات رمزية، فالشاعرة هنا تزهد في بوحها بحبها ومعاناتها المتواصلة التواقة للتقرب من المعشوق فتثني على حبيبها بهذا العشق الذي تفرع إلى حبين ، الحب الأول حبّ الهوى والذي تقصد به الشاعرة الحبّ المباشر الناتج عن مشاهدة اليقين الذي يظهر من خلال نعم الله عليها من إحسان و طاعة ، فهذه النعم هي التّي زادت من تمسكها بحبيبها و تعلقها به ، فأدى إلى تقربها منه بعد انفصال، أي إحداث الوصال والتقرب من الله سبحانه وتعالى والعزوف عن كل الشهوات والملذات التّي تشغل العبد عن ربه، فالذات هنا كانت منشغلة عن هذا الحب بطريقة الانفصال، أما الحب الثاني المتمثل في قولها " الذي هو أهل له " فتعني به حب الله وعظمته والشوق لرؤية وجهه العظيم، ثم تثني وتقول أنّ هذا الحب لا يوجد فيه جزاء " بل يوجب على كل شيء مما لا

أطيقه ولا أقوم بحقك فيه أبدا، إذ كنت قد أحببتك فلزمني خوف التقصير ووجب علي الحياء من قلة الوفاء و الخوف لما تعرضت به من حبك "[6] فهي تحمده وتكبره لأنها وصلت بهاذين الحبيبين إلى ما تسعى اليه وهو القرب من العاشق الإلهي الذي لا يموت، وتتجسد علاقة هذا الحب الإلهي من خلال الفئة الاستهوائية التالية :

المحب(ذ1) الحب (م.ق) المحبوب (ذ2)

الشاعرة الحب الإلهي الله جل جلاله

يمكن أن يتشخّص الحب تركيبيا من خلال هذا المخطط حيث يتجسد في شكل علاقة بين-ذاتية، ذ1(الشاعرة) وذ2(المعشوق الله سبحانه)، وقوام هذه العلاقة المحبة والارتقاء بها إلى الأعلى في سلم المطلق والغيبيات الروحانية حيث " يستقطب الحب كوكبة من الأهواء المتسلسلة بطريقة منطقية: الاعجاب تحولا أساسيا (إقامة العلاقة) وينتظم حول حدث محزن يحول المحب أو المحبوب إلى ذات خائفة وحذرة من تفسخ العلاقة التّي تخل بالميثاق الأخلاقي المبرم بين الطرفين التحاب والتواد وتجنب كل مامن شأنه أن يسبب الأزمة الاستهوائية "[7] ففي الأبيات السابقة تتجسد علاقة الحب بين الشاعرة والله سبحانه وتعالى فهي تناجي وتبوح بهذا الحب الذي يختلف عن الحب الآخر، تناشد الشاعرة حبا أبديا لا يزول، حب يعصمها عن كل الشهوات حب ملئ قلبها كلما تقربت أكثر من محبوبها، فهي تلوذ بهذا الحب في كل زمان ومكان حب روحي خالص، وبالتالي جسدت هذا الحب في مجموعة سلوكات وأحاسيس، فهي زاهدة عن كل الشهوات واضحة سوى لله ولطاعته وجعلت شغلها له وحده دون إشراك أحد فيه " والتصوف بمعنى تصفية القلب لله ينطوي على العبودية لله ومعنى العبودية أن يسجد العبد لله هذا السجود المزدوج، مرة بجسده ومرة بجماع روحه "[8] وهذا ما جسدته رابعة في حبها فهي لا تبغي أي شيء سوى التقرب من الله ورؤيتها له بكشف الحجاب عنه في هذه الباقة المكللة بهذا الحب الإلهي النقي الذي ولد في نفس الشاعرة حالة من الاعتراف والبوح تتخللها حالة من الشكر والثناء على كل النعم التّي وهبها الإله، لهذا كانت له العاشقة الوفية فهجرت زوجها وهجرت النوم والأكل والشرب واعتزلت النّاس ووهبت نفسها وروحها لعبادته عبادة خالصة فكانت مكانة الحب الصوفي أعلى مرتبة بل " لا توجد حدود للمحبة بل لها آثارا وشواهد نتعرف عليها وتتلخص في عدة نقاط هامة منها الميل الدائم نحو المحبوب والإيثار وهذه هي بداية بحار المحبة التّي لا قرار لها "[9] فالحب الذي تقصد به الشاعرة هو حب العبودية الخالصة لوجهه الكريم، وحب المعرفة الذي تقصد به رفع الحجب لرؤية معشوقها وحبيبها وأخذ الرضا منه والتقرب أكثر إليه والفوز برؤيته في الدار الآخرة، لذلك اتخذت من خلوتها وزهدها الوسيلة للظفر بحبه فهو الجليل العظيم الذي يستحق كل

الحب فحبه لا يزول له مكانته في العالم العلوي حب طاهر خالص منقح من كل الدنس والكره والنفاق .وبالتالي فانّ الذات المحبة هنا ذات توفرت على كفاءة استهوائية أهلتها إلى تحقيق موضوع قيمتها من حالة الانفصال (الانشغال بأمور الدنيا) إلى حالة الاتصال (التفرغ في حب الله وطاعته والإخلاص في عبادته)، ومما نلاحظه أنّ اشتغال عاطفة الحب في الخطاب الصوفي قلبت الأدوار الاستهوائية فعادة يكون الحب بين (ذ1) و (ذ2) اللذان يتنافسان على موضوع القيمة (الحب) لأنّ الحب عند الصوفية متوجه إلى قوة أعظم وأكبر مكانة وسمو

وعليه نستطيع أن نصنف هوى الحب ضمن الأهواء الامتعاضية كما صنفه **هرمان باريت**، فالوحدة التركيبية كما رأينا تتشكل من ثلاثة عوامل: المحب والمحبوب وموضوع القيمة ليكون هذا المسار" هو الذي تبرز فيه دينامية النموذج العاملي، حيث يتحدد العامل الذات في علاقته بموضوع القيمة ويحاول انطلاقا من حالة أولية تكون متسمة بالانفصال، التحول إلى حالة يتصل فيها بالموضوع الثمين"[10] ويظهر من خلال قول الشاعرة:[11]

يا سُروري ومنيتي وعِمادي وأنيسِي وعُدتي ومرادي

أنت روح الفؤاد أنت رجائي أنت لي مُؤنس وشوق كزادي

أنت لولاكَ يا حَياتي وأنسي ما تشتّت في فسِيح البلاد

إلى غاية قولها:[12]

راحَتي يا إخوتي في خلْوتي وحَبيبي دائما في حضْرتي

لم أجِد لي عن هواهُ عِوضا وهَواه في البرايا مِحنتي

حيثما كُنت أُشاهد حسنه فهُو مِحْرابي إليه قِبْلتي

ولما كان حال المتصوفة في عهد رابعة العدوية يعرضون عن الزواج ويزهدون فيه ولذلك كان منهجهم الابتعاد عن كل الشهوات ويعرضون عنها لأنها تقف حائلا بينهم وبين التقرب إلى المحبوب فهم يبحثون عن راحتهم النفسية المتمثلة في الإخلاص للمحبوب ووهب أنفسهم له لأنه يمثل عندهم كل الوجود بل الوجود ذاته، لهذا لا سبيل للبحث عن البديل لأن حب الله وطاعته والانقطاع عن ملذات الدنيا وأوساخها عشقها الأبدي ومولاها وحبيبها هو الله لا أحد غيره فهو عندها كل الهوى الذي " ليس عارضا أو مضافا أو طارئا يمكن الاستغناء عنه أو التخلص منه ...أنه جزء من كينونة الإنسان وجزء

من أحكامه وميولاته وتصنيفاته"[13] فالشاعرة هنا في حالة اتصال بموضوع قيمتها المتمثل في الفوز بالحب الإلهي، الحب المطلق الذي لا يفنى، فالراحة التّي تناشدها الشاعرة راحة الاهية فهي تناشد الخلوة وتستلذ بها طالما الحبيب في حضرتها فهي تستأنس بوجوده دائما بقربها.

انشغلت الذات بحب الله انشغالا لا مثيل له صرفها عن نفسها وشغلها عن أي مخلوق آخر ففضلت الخلوة عن كل شيء، وقد عبرت هذه الأبيات عن جواب الشاعرة في رفضها للزواج لأنّ انشغالها الوحيد حب الله الذي نذرت له نفسها فهو موجود معها لا يفارقها، فمن خلال هذه الأبيات يظهر الجانب الحسي أكثر نتيجة تقليص الفجوة بين المحب والمحبوب، فرابعة تنفي بعد حبيبها عنها فهو حاضر في حسها وقلبها وجوارحها ويتمثل الإحساس هنا بتقليص الفجوة بين العالم الحسي والعالم الإلهي فيحدث الاتصال ليسد تلك الفجوة حسيا وهذا ما نلمحه في المعجم اللغوي الصوفي الذي وظفته الشاعرة والذي أدى إلى بروز عاطفة الحب " فالحالة النفسية التّي تنسخ حالة الأشياء بحاجة إلى كلام ينقل مضمراتها من حالة الكمون إلى حالة البروز، ويسعفها على التأثير في الواقع و تغييره، واذا كانت حالة النفس منفصلة عن الأشياء فان الوحدات الكلامية تلعب دورا في الكشف عما تتضمنه السريرة في دفع الذات إلى التحرك والانتقال من حالة إلى أخرى"[14] فالذات بعد أن كانت منقطعة عن هذا الحب المطلق، منفصلة عنه أصبحت ذاتا متصلة بموضوع قيمتها الحب الإلهي، فالذات تبحث عن المناجاة الصافية والإيمان المطلق بالله .

تظهر عاطفة هوى الحب في الخطاب الصوفي بارزة، فهو من أبرز الخطابات الحافلة بالأهواء والأحاسيس التّي تختلج الذات الإنسانية وتحملها على البوح بمكنوناتها، " إنّ الهوى ليس الكلية الانفعالية إنه أحد أشكال وجودها، أي ما يترتب عن انشطار الذات لحظة اصطدامها بالعالم، ولكنه يعد من جهة ثانية من خلال أشكال التّحقق هاته، رغبة في العودة إلى هذه الكتلة والانصهار من جديد في وحدة مطلقة "[15] وهذا الانشطار هو الذي سمح للذات الشاعرة بالانصهار مع محبوبها والذوبان فيه وفنائها من أجل البقاء بالقرب منه، ومن الشواهد على ذلك قول رابعة العدوية[16]

وأنيسي وعُدتي ومُرادي يا سُروري ومنيتي وعِمادي

أنت روحُ الفؤاد أنت رجائي أنت لي مؤنس وشوق كزادي

أنت لولاكَ يا حياتي وأنْسي ما تشَتت في فسِيح البلاد

فهذه الأبيات تعبر عن حالة الزهد في الشعر الصوفي، فالشاعرة مترفعة عن كل الشهوات والملذات الدنيوية زاهدة عن كل الشهوات وهو وسيلتها للحب والتقرب إلى الله، فهي قابعة في خلوتها تستلذ بأنيسها الإلهي وترجوا لقاءه وشوقه فهي تنتقل من مكان لآخر تناشد حبه الذي ملأ قلبها الندي

وشغلها عن كل متطلبات هذه الحياة الزائفة الزائلة، تطمح إلى الآخرة التّي فيها اللقاء مع الحبيب والأنيس الذي لا يعدله أنيس آخر، فهو مرادها وهدفها في الحياة تبغي رضاه وعفوه وتطمح للقائه ورؤية وجهه العظيم وهذا هو مطلب أي صوفي من الله عز وجل تحقيقه إياه " وبهذه الممارسة الروحيّة والسّلوكية تؤسّس الصوفية لمرتبة أرقى في هذه الطريق الذي لا غاية له إلا هو سبحانه "[17] فهو ذات عليا ممتنعة صفاتها الكاملة عن كل تواصل، وبالتالي فالشاعر الصوفي نجده دائما توّاقا إلى مغالبة النفس والسمو الروحي المنشود عن طريق التدبر في الخلق ووضع وحدة الوجود فوق كل اعتبار فرابعة لم تعد ترى شيئا في الوجود إلا الله سبحانه وتعالى فلا محبوب ولا معبود إلا هو لأنه أهل لهذا الحب.

4.الخطاطة الاستهوائية لهوى الحب الصوفي:

يتجلى الحب في الخطاب الصوفي بتميز هذه العاطفة بمجموعة من القيم التّي تظهر على المستوى التوتّري، كما تظهر إرادة الكينونة على المستوى السيميو-سردي والذي يعمل على توجيه فعل الذات وإبرازها على مستوى التجلي الخطابي، وعليه فانّ التوترات الأولية التّي تنشأ عن عاطفة الحب تتكاثر وتنمو في بؤرة المحبوب الذي يشكل في النهاية الموضوع أو القيمة المرغوب فيها. فالذات المحبة في هذا الخطاب ذات عارفة وحاسة يختلجها العشق والشوق لملاقاة الحبيب ونيل رضاه وهذا يعني " أنّ التجربة الصوفية في جوهرها محاولة وجدانية ذوقية للفكاك من قيود الواقع ونواميس المألوف والارتقاء نحو مدارات الكمال المنشود تواصلا مع المطلق، حيث لا تقيد بالزمان والمكان وما تعلق بهما "[18]ولكي تتحقق هذه الرغبة يجب أن تنجز الذات لبرنامجها السردي وتعمل على تحقيقه، فقبل أن يتكوثر هوى الحب فانّ الذات تسعى إلى تكديس جميع التوترات التّي صاحبتها منذ نشأتها الأولى لتكّون في الأخير عاطفة الحب، فتلجأ الذات المحبة إلى البحث عن المحبوب والاتصال به من خلال إحساسات أولية تكون المعبر الفعلي لمبعث العاطفة الأم . ولذلك سنركز في دراسة الهوى على كيفية اشتغاله و" ما الذي يحقق المدلولية المعبّر عنها في النصوص والخطابات التّي نقرأها أو نسمعها أو ننتجها؟ أي نسق منظم وتجميع دقيق وقواعد تحكم بيان المعنى " [19]

وبالعودة إلى الخطاطة الاستهوائية المقننة نجدها تركز على دور الذات الاستهوائية وتحققاتها الممكنة داخل الخطاب والتّي تعمل على رصد مراحل تطور الهوى داخل المقاطع الهووية وتنظيمه داخل الكون العام للمحكي، وتظهر الخطاطة الاستهوائية لهوى الحب الإلهي عبر مراحل هووية كالتالي:

1- اليقظة العاطفية :(Eveil affectif)

" هي أولى مراحل المسار العاطفي، وفيها تكون الذات مهيئة بالشعور بحالة عاطفية تسكنها تكون هذه العاطفة في الغالب يقظة مما يظهر عليها مجموعة من التغيرات الإيقاعية والكمية "[20] فالشاعرة

توجه هذه العاطفة نحو الارتقاء بما يقربها إلى المعشوق الأعلى ويظهر ذلك من خلال الألفاظ التالية (يا سروري، مرادي، رجائي، شوق) فكل هذه الألفاظ تعمل على تحريك الذات الاستهوائية إلى حالة الاتصال لتحقيق الغاية المرجوة، وبالتالي فانّ ذات الفعل هنا تصبح ذات حالة وفعل معا وغايتها تحقيق هدفها وفق مسار استهوائي يؤطر سيرها نحو قولها[21]:

يا حَبيبَ القلْبِ مالي سِواكَ فارحمْ اليوم مُذنبا قد أتاكَ

يا رجائي وراحَتي وسُروري قد أبى القلبُ أن يحبّ سواكا

2- الاستعداد: (Disposition)

في هذه المرحلة تستقبل الذات العاطفة التّي أيقظتها في المرحلة السابقة بحيث تتخيل الذات مشاهدة تتطابق مع رغباتها والعاطفة التّي تهدف إلى الوصول إليها وسميت هذه المرحلة بالاستعداد العاطفي لأنّ الذات تكون قد تكونت لديها العاطفة وأصبحت قادرة على الشعور بهوى معين دون الآخر أو بما يسمى الاستطاعة "[22]

أحبك حبين: حبّ الهوى وحبّا لأنك أهل لذاك

فأمّا الذي هو حُبّ الهوى فذكر شغلت به عن سواكا

وأما الذي أنت أهل له فكشفُك الحجب حتّ أراكا

فما الحمدُ في ذا وذاك لي ولكنْ لك الحمدُ في ذا وذاك [23]

في هذه المقاطع باحت الشاعرة بحبها وعشقها لله، فرابعة في خطابها الروحي اعتنقت التجرّد والتجريد همها الوحيد الرضى بقرب الله والألفة المنتجة للإيمان والمحبة، ويعود ذلك إلى الحس الوجداني الكبير للشاعرة الذي جعلها متوجّدة وفانية في حب الله.

3-المحور العاطفي :(Le pivot passionnel)

"في هذه المرحلة تطرأ بعض التغيرات العاطفية على الذات تجعلها تتعرف على الهواجس والاضطرابات التّي صادفتها في المرحلتين السابقتين وعلى مستوى المحور العاطفي يحدث تغيرا جذريا لهوية الذات والذي يمس بالخصوص جهات الكينونة التّي تساهم في شكل لاحق في تشكيل القدرة

الدلالية للذات، هنا تتعرف الذات على ذلك الحب وتدركه إدراكا كليا "[24] ويتجسد هذا في قول الشاعرة:[25]

يا طبيبَ القلب يا كلّ المنى جد بوصل منك يشفي مهجتي

نشأتي منك وأيضا نشوتي يا سُروري وحياتي دائما

قد هجرتُ الخلق جمعا أرتجي منك وصلا فهو أقْصى منيتي

في هذه المرحلة تتبدى على الذات الاستهوائية بعض الصفات الحسية التّي تجسد تلك المشاعر والأحاسيس التّي تكابدها من خلال هذا الهوى فالوصل والهجر مقيمان في ذات الحبيب فالمحبة هبة من عند الله سبحانه وتعالى يرد بها التقرب إليه بالطاعات والصلوات والذكر الذي يقرب العبد من ربه وتفتح أمامه الطريق إلى التوبة وهذا ما تجسده هذه الأبيات[26]:

صلاتُك نورٌ والعبادة رقود ونومك ضد للصلاة عنيد

وعمرك غنم إن عقلت ومهلة يسير ويفنى دائما ويبيد

4 -(L'émotion)

العاطفة:

يتم التركيز في هذه المرحلة على جملة الاضطرابات التّي تؤثر في الجسد الحاس مثل الارتجاف، التشنج، الارتعاش...إلخ يتجلى ذلك من خلال رد فعل جسدي تشعر به الذات وتلاحظه من الخارج وهي النتيجة التأثيرية للمحور الاستهوائي" [27]ومن الشواهد على ذلك[28]:

أحبكَ حبين: حب الهوى وحُبّا لأنك أهل لذاك

وأشتاق شوقين: شوق النوى وشوقا لقُرب الخطى من حماك

فأمّا الذي هو شوقٌ النوى فمسْرى الدموع لطول نواك

وأما اشتياقي لقُرب الحِمى فنار حياة فنت في ضياكا

فلا الحمد في ذا وذاك لي ولكن لك الحمدُ في ذا وذاك

فالشاعرة تتخبط في هوى العشق والشوق إلى الحبيب ويبدوا ذلك جليا من خلال الألفاظ التّي تدل على الحب والاشتياق (الشوق، الخطى، الدموع، الحمى، الفناء) ويكفي أنّ هذا المقاطع الشعرية تشع بهذا الحب المطلق، الحب الفاني الذي لا يزول ولهذا نجد الشاعرة هائمة به من مكان لآخر تناشد المحبوب العفو والصفح والتوبة وتسأله الرضى والقربة.

5-التقويم الأخلاقي : (Moralisation)

"وصولا إلى نهاية المسار فانّ الذات تظهر لنفسها وللآخرين الهوى الذي مارسته، ويظهر هنا من خلال حدث مرئي قابل للتقييم والقياس"[29] وهنا تكون الذات مستعدة للتعريف بالهوى وفق ما يتلاءم مع القيم الثقافية والعرفية لها، وفي النهاية يمكن الحكم على الفائض الانفعالي حيث يمكن قياسه وتقييمه وفق ما ينص عليه الحكم القيمي للجماعة المنتمي إليها ومن خلال التمظهرات السابقة ينصب التخليق أيضا " على الأشكال الهووية للأهلية وعلى الاستعداد ذاته بشكل سابق عن أي فعل..."[30] ومنه فانّ اللغة الصوفية تحتفي بالرمزية ولذلك نجد صعوبة في قراءة النّص الصوفي وتأويله ورده إلى منبعه الأصلي، ومن بين الشواهد على هذه المرحلة قول الشاعرة[31]:

حبيبٌ ليس يعدله حبيب ولا سِواه في قلبي نصيب

حبيب غاب عن بصري وشخصي ولكن في فؤادي لا يغيب

إلى غاية قولها[32]:

وقد جعلتُ في الفؤاد مؤنسي وأبحت جسْمي من أراد جلوسي

فالجسمُ مني للجليس مُؤنسي وحبيبُ قلبي في الفُؤاد جليسي

تعلن الشاعرة حبها الأبدي لله وحده لا يمكن لسواه مشاركته هذا الحب الأبدي الذي ترعرع في قلب رابعة، فرغم غياب الحبيب عن بصرها وشخصها إلا أنّه في القلب لا يغيب له مكانة ودرجة عالية في قلبها فهو حاضر كل الأوقات والأزمنة هو أنيسها في خلوتها حاضر في مناجاتها في صلاتها وتضرعاتها ينصت إليها، وأملها الوحيد القرب إليه والفوز برضاه.

5. خاتمة:

في ختام هذه الدراسة لا يسعنا إلا القول بنجاعة الإجراءات المنهجية والأدوات الإجرائية في تحليلها للخطاب الصوفي ورصد كيفية اشتغال الأهواء وبالتالي التعرف على الأكوان الهوويّة والتفاعل

بين الأهواء ودلالة الخطاب، ومنه نستنتج أنّ سمة الانفتاح متجلية في الخطاب الصوفي وتظهر هذه السمة من خلال إرادة الذّات في تقويم ذّاتها، وما يمكن استخلاصه من هذا البحث ما يلي:

- يعد الخطاب الصوفي خطابا عرفانيا محضا، يتخذه الشعراء المتصوفة للبوح والتعبير عما يتأجج في صدورهم من فيض المحبة الإلهية، فوردت تجاربهم خالصة معبرة عن صفاء المشاعر وخالص المحبة، فكانت أشعارهم تحمل طابع الجمالية جمالية في الأسلوب وجمالية في اللغة، كما تحمل أشعارهم رسالة روحانية تبين علاقة العبد بربه وتدعوا إلى التدبر والتأمل في نعم الخالق لعباده.

-يحمل الخطاب الصوفي خصائص تميزه عن بقية الخطابات الأخرى، فعلى غرار طابعه الروحي فهو يتميز بطغيان الرمزية والغموض والإشارة وهذا ما دعا النقاد إلى قراءته بمناهج حداثية معاصرة باعتباره يحمل طواعية المادة التّي تمكنه من الاستجابة للفكر النقدي المعاصر بكل اتجاهاته ومدارسه

-إمكانية تطبيق سيميائية الأهواء على الخطاب الصوفي لما يحمله من انفعالات وعواطف متأججة قابلة للتقييم.

-إنّ التجلي عند الصوفية هو استجلاء للذات الإلهية وأسرارها وهو أحد مقوماتها

-يتسم الحب الإلهي عند الصوفية بعتق روحهم من رق جسدهم فيرحل بها إلى أقصى الوجود حيث يطهرون أنفسهم من أوساخ الدنيا ويرتقون نحو الاتحاد مع الذات الإلهية أو فناء هذه الأخيرة وهو ما حققته الشاعرة **رابعة العدوية** في حب الإله.

-تحقق القصيدة الصوفية حالة الوجود السيميائي المتجانس، فالذّات تحس كما أنها تفعل وفق رأيي **غريماس وفونتني.**

-يكمن طرفا العملية التواصلية في القصيدة الصوفية بين " الأنا " الذّات الصوفية وبين الذّات العليا (الله سبحانه وتعالى).

هوامش البحث:

1-حلمي محمد مصطفى، الحب الإلهي في التصوف الإسلامي، دار القلم، القاهرة ،1990، ص5

2 -مراد ليمام، سؤال الهوية في نظام الخطاب العربي، أفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء،2018، ص82

3-ألجيرداس جوليان غريماس وجاك فونتني، سميائيات الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس، تر، سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد، ط1 ،2010، بيروت، لبنان، ص12

4-محمد علي كندي في لغة القصيدة الصوفية، دار الكتاب الجديد، ط1،2010، بيروت، لبنان، ص 43

5-حليمة وازيدي، سيميائيات السرد الروائي، من السرد إلى الأهواء، منشورات القلم المغربي، ط1، 2017، الدار البيضاء، المغرب، ص85

6-عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، دار الرشاد، ط1، 1997، مصر، ص174

7-محمد الداهي، تجليات البعد الانفعالي في رواية الحي الخلفي لمحمد زفزاف www.mohamed-dahi.net

8-أحمد بهجت، بحار الحب عند الصوفية، دار المعارف، د,ط ، 2002، بيروت، لبنان، ص 101

10-المرجع نفسه ص 103

11-عبد المجيد نوسي، التحليل السيميائي للخطاب الروائي، البنيات الخطابية-التركيب-الدلالة، المدارس للنشر والتوزيع، ط1، 2002، الدار البيضاء، المغرب، ص 154

12-عبد المنعم الحفني، رابعة العدوية امامة المحزونين والمعشوقين، ص10

13-المرجع نفسه، ص 17

14-غريماس وجاك فونتني، سيميائيات الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ص 09

15-محمد الداهي، سيميائية الكلام الروائي، المدارس للنشر، ط1، 2006، الدار البيضاء، المغرب، ص 35

16-سيميائيات الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس، ص 28

17-عبد المنعم الحفني، رابعة العدوية امامة المحزونين والمعشوقين، ص10

18-محمد علي كندي، في لغة القصيدة الصوفية، ص 52

19-نفس المرجع، ص84

20-فريق أنتروفون، تر، حبيبة جرير، التحليل السيميائي للنصوص، دار نينوي، د ط، 2012، سورية، دمشق، ص 35

21- jaques fontannilie, sémiotique et littérature, essais de méthode ,1ere édition, universitaires ،1999, p79 de France

22-عبد المنعم حفني، رابعة العدوية إمامة المحزونين والمعشوقين، ص17

23- jaques, fontannille, sémiotique et littérature, p80

24-عبد المنعم حفني، رابعة العدوية امامة المحزونين والمعشوقين، ص 37

25-Jaques, fontannille, sémiotique et littérature, p80

26-عبد المنعم حفني، رابعة العدوية، امامة المحزونين والمعشوقين، ص 37

27-المرجع نفسه، ص 29

28- jaques, fontannille, sémiotique et littérature, p81

29-عبد المنعم حفني، رابعة العدوية امامة المحزونين والمعشوقين، ص 129

30- jaques, fontannille, sémiotique et littérature, p81

31- ألجيرداس جوليان غريما وجاك فونتني، سيميائيات الأهواء، ص213

32- عبد المنعم حفني، رابعة العدوية امامة المحزونين والمعشوقين، ص28

قائمة المراجع:

المراجع العربية:

1-أحمد بهجت، بحار الحب عند الصوفية، دار المعارف، د,ط ، 2002، بيروت،لبنان

2-ألجيرداس جوليان غريماس وجاك فونتني، سميائيات الأهواء من حالات الأشياء إلى حالات النفس، تر، سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد، ط1 ،2010، بيروت، لبنان

3-حلمي محمد مصطفى، الحب الإلهي في التصوف الإسلامي، دار القلم، القاهرة ،1990

4-حليمة وازيدي، سيميائيات السرد الروائي، من السرد إلى الأهواء، منشورات القلم المغربي، ط1، 2017، الدار البيضاء، المغرب

5-عبد المجيد نوسي، التحليل السيميائي للخطاب الروائي، البنيات الخطابية-التركيب-الدلالة، المدارس للنشر والتوزيع، ط1، 2002، الدار البيضاء، المغرب

6-عبد المنعم الحفني، رابعة العدوية امامة العاشقين والمحزونين، دار الرشاد، القاهرة ،1991

7-عبد المنعم الحفني، الموسوعة الصوفية، دار الرشاد، ط1، 1997، مصر1991-فريق أنتروفون، تر، حبيبة جرير، التحليل السيميائي للنصوص، دار نينوي، د ط، 2012، سورية، دمشق

8-محمد الداهي، تجليات البعد الانفعالي في رواية الحي الخلفي لمحمد زفزاف www.mohamed-dahi.net

9-محمد علي كندي في لغة القصيدة الصوفية، دار الكتاب الجديد، ط1،2010، بيروت، لبنان 3-

10-مراد ليمام، سؤال الهوية في نظام الخطاب العربي، أفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء،2018

- المراجع الأجنبية:

11- jaques ،fontannilie, sémiotique et littérature, essais de méthode ,1ere édition ,universitaires de France